اللغة واللهجة

اللغات في الأصل لغة واحدة ، كما سبق أن بينا ذلك ، وقد حدث صدع في اللغة الأم فأحدث شروخا فيها ، وقد حدث هذا الصدع أولا في جدار المجتمع الإنساني الأول الذي كان أمة واحدة ، فاختلف أو وقع فيه نزاع وصراع ، فافترق إلى أمم صغيرة انفردت كل أمة بنفسها ، ثم تباينت في كثير من الجوانب عن غيرها ، وطال عهد الفراق ، فكانت الأجيال المتعاقبة مختلفة عما تسبقها ، ولا تربطها صلة حميمة بأبناء عمومتها ، بل اتسعت الهوة بينها وبين قرنائها ، فانقطع التواصل ،وباتت كل أمة غريبة عن غيرها ، ووقع في كل أمة منها مثلما وقع في الأمة الأولى ، اختلاف وانفصال وهجرة ، وخلال هذه المراحل نشأت اللهجات في ظل لغة الأمة الأولى ، ثم تمكنت اللهجات من الاستقلال باستقلال من يتكلمونها عن الأمة الأولى ، وتمكنت هذه اللهجات من أن تبني لنفسها شخصية مستقلة ، لا ترتبط باللغة الأولى إلا جذورها الأولى التي تتمثل في بعض المفردات ، وقد طورت من مفرداتها وزادت فيها ، وكذلك في بناء جملها وأسلوبها ، وتمكنت اللهجة بذلك من أن تصبح لغة تنافس اللغة الأم وتنازعها مكانها في الخطاب اليومي ، وقد يكتب لها الغلبة فتقضي عليها وتأخذ مكانها ، وهو المرجح وهذا شأن نشأة اللغات العالمية المعاصرة ، والميتة التي تنتسب إلى لغات أخرى سابقة عليها .

ويطلق على اللهجة اسم: لغة ، ولغوة ، ولسان ، ولحن ، فيقال لغات العرب ، يعني لهجاتهم وكذلك لغوة كأن نقول لغوة محلية أو لغوته مختلفة ، ونقول لسان حمير بمعنى لهجتها ولسان تميم ولسان طيئ . فإذا نسبت اللغة إلى قبيلة فهي تعني اللهجة وكذلك اللسان ، ولكن إذا نسبت إحداهما للعرب «لغة العرب» أو «لسان العرب» ، فهما بمعنى «اللغة العربية» ، وكذلك كلمة لحن تعني اللهجة ، يقال «أنزل القرآن بلحون العرب» أي وجوه القراءات نزلت بلهجات العرب. وقد جاء في قوله تعالى:﴿**وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ**﴾ [محمد: 30] أي لهجته وأسلوبه . واللهجة Dialect في الاصطلاح العلمي الحديث هي مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة ، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة .

وتمثل اللهجة مستوى من مستويات اللغة الواحدة في المواقف الكلامية التي يعيشها الفرد في مجال الحياة اليومية ، وتتنوع مجالات حياة الفرد اليومية ما بين مواقف اجتماعية وسياسية وثقافية وغير ذلك ، ولكل مجال منها خطاب خاص به ، وتستخدم اللهجة العامية والفصحى جنبا إلى جنب في خطابنا اليومي ، وتوجد أشكال مختلفة من الازدواج اللغوي Diglossia في بيئة لغوية واحدة ، ويحدد الموقف الكلامي نوع المستوى ووظيفته في الخطاب ، ومستوى المتلقي أيضًا يفرض على صاحب الخطاب مستوى معينًا يناسبه ومجال الخطاب أو موضوعه أو قناة الاتصال. ولا شك أن اللغة الفصحى أو الخطاب العالي المشترك الذي تشترك فيه هذه المستويات المتنوعة له مكانة ومنزلة ترتفع كثيرا عن مستوى العامية ، فاللغة الفصحى قدسية عند المجتمع العربي ، لارتباطها وثيق الصلة بالدين والتراث والثقافة ؛ لأنها تمثل أعلى مستوى لغوي يخضع لعرف العربية العام ، ولهذا فاللغة الفصحى هي اللغة الرسمية في المجالات العلمية والثقافية[1].

واختلف علماء اللغة في وضع مفهوم دقيق يميز اللهجة عن اللغة العامة dialected langue commune ، ولا نريد أن نخوض فيما اختلفوا فيه أو نثقل عليك بكثرة الجدال ، ولكننا تحرينا مسائل الخلاف في هذا الموضوع ، فوجدناها لا تخرج عن هذا التصور الذي أضعه بين يديك لترى فيه رأيك ، وهو أن اللغة هي التي تستطيع أن تستقل بنفسها استقلالا تاما يميزها عن غيرها من اللغات التي قد تكون من أسرتها أو شقيقة لها ، وتستقل كذلك عن اللغة الأم التي نشأت عنها ، فتصبح لها شخصية لغوية لها مزايا اللغات الأخرى ، ولا عبرة في ذلك بعدد من يتكلمونها ، فقد يكون أصحابها قليلين قياسا إلى اللغات المجاورة لها مثل اللغة النوبية التي يتحدثها عدد قليل ، وهذا مما يعرضها للفناء ، ولكنها لغة في عداد اللغات ، لأنها تحظى بشخصية مستقلة تميزها عن اللغة العربية التي تحاصرها في صعيد مصر ، وأوشكت أن تحل محلها . وكذلك بعض اللغات الميتة التي تستخدم في إطار ضيق مثل اللغة القبطية في مصر ، والسريانية في الشام والعراق ، ولا عبرة كذلك بأمر الكتابة ، فبعض اللغات العالمية لا تكتب ومن هذه اللغات لغة الهنود الحمر في أمريكا واللغة النوبية

---

(1) ارجع إلى: أسس علم اللغة العربية ص17 ، وفي علم اللغة العربية ص165 -170 .

في مصر والسودان ، وهذا مما يفقدها قدرتها على الاستمرار أو الاحتفاظ بالشكل القديم ، واللغات المنطوقة دائمة التطور ، وكذلك اللهجات كثيرة التعدد ، والتطور ، فليس لها نص مدون أو قواعد عامة تضبط استعمالاتها وأبنية مستوياتها الصوتية والصرفية والتركيبية والمعجمية .

واللهجات إما أن تموت أو تتلاشي وإما أن تتطور إلى لهجة جديدة والفرق بين اللهجة واللغة ، أن اللهجة جزء من اللغة حدث له تغيرات صوتية ، وظهرت بها كلمات خاصة بها ، لكنها لم تستقل عن اللغة بل تعيش في إطارها ، لكن اللغة مستقلة بنفسها وأكثر ثباتا واستقرارا ، وتتطور في تؤدة وتحرص على نظامها ، كما أنها أعم وأشمل من اللهجة في حين أن اللهجة أسرع تطورا ولا تتقيد بقواعد ثابتة ، كما أنها تتعدد في اللغة الواحدة والمجتمع الواحد والمكان الواحد أيضا كما أن اللهجات لا تملك نظاما شاملا أو انتشارا واسعا ، فهي دائما تعيش في نطاق ضيق ، فاللهجات قد تختلف من قرية إلى قرية متجاورتين ، وكذلك تختلف من مدينة وأخرى ، ومن ثم لا توجد بدول تتحدث لغة واحدة لهجة واحدة بل لهجات .

واللهجات تموت أو تتطور إلى أخرى في ظل نظام اجتماعي مترابط يتواصل بلسان واحد ، ويملك نمطا تعليميا متقاربا بين أفراده ، وفي ظل وجود عوامل دينية تلزم المجتمع بلغة ما أو في ظل نظام سيادي يعترف بلغة رسمية في مجال التعليم والخطاب الإعلامي والسياسي ، ومن ثم يموت ما عدا ذلك من اللهجات أو تهمش أو تساعد تلك العوامل على نشر لهجة على حساب أخرى أو تساعد على توحيد الألسنة داخل هذا المنظومة البشرية . واللغات الحديثة كانت لهجات ضمن منظومة اللغة الأم التي نشأت في ظلها ، وعاشت إلى جوارها جنبا إلى جنب ، فوقع ازدواج لغوي ، Diglossia ثم استطاعت اللهجة أن تأخذ مكان اللغة الأم في الخطاب اليومي ، حتى انتظمت بسلك اللغة ذات الشخصية المستقلة وأصبحت اللغة الأم مهجورة ، وليس لها حق المشاركة في الخطاب اليومي الذي باتت غريبة عنه .

ووحدة اللغة تحكمها وحدة الجماعة التي تتحدثها ، فاللغة تعيش في إطار الجماعة

المتماسكة كيانا واحدًا لا فروق بينها ، وكل جماعة أو أمة متجانسة تحرص على لغة واحدة متجانسة ، تعبر عنها ، ولكن عندما تنقسم هذه الأمة على نفسها إلى جماعات مستقلة تنقسم معها اللغة التي تتحدثها ، فتظهر الفروق اللغوية التي تميز لغات هذه الجماعات ، وهي لهجات وليست لغات بالمعنى العام ، وقد أطلق عليها بعض الباحثين «لغات محلية » ، فكلما وجدت مجموعات بشرية محلية ، وجدت معها لغوات محلية متميزة في إطار اللغة الأم التي تفرعت منها ، وظهرت فيها هذه اللهجة إلا في الأقاليم التي تخضع لنظام هذه الجماعة التي تربطها لغة واحدة ، وهذه الظاهرة ليست مطلقة أو مطردة في كل الأمم ، فالاختلاف في عناصر السكان قد يؤدي إلى اختلاف في لغتهم بأرض واحدة يسكنونها ، ويقع هذا في الجماعات أو المدن التي تسكنها طوائف مختلفة أو أجناس متعددة دون أن تذوب هذه الفروق بين الأفراد ، فكل جماعة تحرص على الحافظ على لغتها ، ولكنها لا تنجو من تأثير اللغة التي تعايشها في هذا المكان ، وكذلك يقع تأثير بين الطوائف الدينية المختلفة .

فقد تأثرت اللغات الحبشية التي هاجرت من الجزيرة العربية إلى الساحل الغربي الأفريقي باللغات الأفريقية أو لغات الزنوج في المناطق المجاورة ، وتأثرت اللغة العربية في المغرب العربي بلغات البربر في شمال أفريقيا ، ونشأ عن ذلك لهجات غريبة وغير مفهومة لكثيرين من العرب الذين لا يسكنون المغرب العربي، والتي تعرف في المغرب بالأمازيرية .

وللدين أثر كبير في بعض اللغات ، فلغة الدين Religion language أو لغة الشعائر الدينية liturgical language هي اللغة العربية في كل أنحاء العالم الإسلامي ، واللغة اللاتينية هي لغة الطقوس الدينية عند الكاثوليك ، واللغة العبرية هي لغة الدين عند اليهود، واللغة السريانية هي لغة الدين عند النصارى في الشام والعراق ، والقبطية عند المصريين ، والجعزية في كنيسة الحبشة (أثيوبيا) ، وهذه اللغات عدا العربية والعبرية لا تستخدم إلا في إطار الدين فقط ، وبعض المجالات الأخرى ، وتوصف بعض اللغات بأنها لغة جماعة Group language ، وهي التي تستخدم في إطار مجموعة حضارية أو إثنية داخل الدولة ، مثل المهرية – وهي لغة يمنية قديمة – تستخدمها مجموعات يمنية محدودة في اليمن ، وانتقلت مع من هاجر منهم إلى الكويت ، وهي لغة مجموعة إثنية Ethnic language ،

ومثلها البربرية في المغرب العربي ، والكردية في العراق ، وإيران ، وتركيا ، والنوبية في جنوب مصر ولغات الزنوج جنوب السودان وغربها ، وترتبط هذه اللغات بهذه المجموعة ، وتحافظ على استقلالها إذا تمتع أصحابها باستقلال جغرافي ، وتعد لغة ثانية إلى جانب اللغة الرسمية ، وتزيد انتمائهم لها ولقوميتهم ، ولقد تمتع النوبيون باستقلال جغرافي لوقوعهم في منطقة شبه منعزلة حتى عهد قريب، ولكن لم يستطيعوا المحافظة على هذه الحدود الجغرافية بعد بناء السد العالي ، والتوسع الحضاري في صعيد مصر وسفرهم إلى الخارج وهجراتهم إلى القاهرة والمحافظات الأخرى .

فأهل النوبة من سكان القاهرة الذين يسكنون في منطقة واحدة (إمبابة وما جاورها) يتواصلون معا بلغتهم النوبية ، ويتواصلون مع غيرهم من سكان القاهرة بلهجة أهل القاهرة ، ولكن ضعفت النوبية في الأجيال المتعاقبة وانصهروا في سكان القاهرة ، ولم تعد اللغة القديمة إلا في كبار السن ، وسكان منطقة النوبة من النوبيين في جنوب مصر تعلموا العربية ، وهم في طريق التعريب الكامل ، وقد ساعد في هذا إسلامهم واندماجهم في المجتمع العربي ، وانتشار التعليم فيم ووسائل الإعلام المختلفة .

والأقباط المصريون – مسلمين ونصاري – تعلموا العربية وتعربوا ، لأنها لغة الثقافة والسلطة ، وحدث مثل هذا في عديد من الدول التي دخلها الإسلام ، هذا على مستوى اللغات المختلفة ، ولكن على مستوى اللهجات فلا ، لأن اللهجة تصاحب وجود اللغة في ظل وجود جماعات متفرقة تختلف عن غيرها في المكان والطبائع والصناعة والفكر . ولكن وسائل الإعلام الحديثة تقوم بتسوية الفروق بين أبناء الوطن الواحد ، فقد أصبحت لهجة سكان القاهرة معروفة في أرجاء مصر ، لأنها لسان الإعلام المنطوق ، وانتشار التعليم وسرعة الاتصال ، وكثرة الاحتكاك والتواصل ، جميعهم يساعدون على ذوبان فروق اللهجات في الوطن . فقد حدث تقارب شديد بين اللهجات في جنوب مصر وشمالها ، وقد كانت بينهم فروق عميقة ، وكذلك الفروق بين اللهجات العربية في طريقها إلى الذوبان بفضل التواصل المباشر ووسائل الإعلام ، والوطن العربي به لهجات تكاد تكون غريبة أو لغة أجنبية نحو ما نسمعه من لهجات المغرب العربي التي لا نفهمها ، لتأثرها بالبربرية

والزنجية ولغة المستعمر . واللهجة المصرية سيكتب لها الانتصار على بقية لهجات العرب بفضل قيادة مصر الثقافية .

ومن الملاحظات الفريدة التي يغفل عنها بعض الباحثين أن لغة الأجيال المتعاقبة تختلف ، فلغة الشيوخ تختلف في بعض جوانبها عن لغة الأطفال ، من أبناء الجيل الجديد ، وهم أبناء لغة واحدة ولهجة واحدة ، ويمكن ملاحظة ذلك في اللغة المستخدمة في مصر بدءا من عهد محمد علي حتى بداية القرن التاسع عشر ، ونقارن بينها وبين لغة الخطاب الذي نتكلمه اليوم ، ولنتأمل جيدا اللغة والأسلوب اللذين كتب بهما رفاعة الطهطاوي مؤلفاته ومترجماته واللغة والأسلوب اللذين نكتب بهما اليوم ، لا شك أننا سوف نجد اختلافًا في مستويات الخطابين ، وقد أشار إلى ذلك القدماء فيما ذكروه عن تطور العربية عبر عصورها المختلفة . ومن ذلك ما قاله أبو عمرو بن العلاء «العرب كلها ولد إسماعيل إلا حمير وبقايا جرهم ، وكذلك يروي أن إسماعيل جاورهم ، وأصهر إليهم ، ولكن العربية التي عني بها محمد بن علي (بن الحسين رضي الله عنه) اللسان الذي نزل به القرآن ، وتكلم به العرب على عهد النبي ﷺ، وتلك عربية أخرى غير كلامنا هذا» [1] .

فقد تطورت العربية في الإسلام وطرأ عليها تغيير في المفردات والأسلوب ، ويمكن التحقق من هذا من خلال مؤلفات كل حقبة زمنية .

والتغير الذي يطرأ على اللغة الواحدة لا يتعلق بالتكوين الإنساني أو قدرته على الكلام ، وإنما يحدثه ما يقوم به كل جيل من تطوير وما يقدمه من مساهمة في التجديد ، فالإنسان يطور من نفسه في ظل استمرار عجلة الحياة وسرعتها ، وكل جيل يضع لنفسه نمطا جديدا في الحياة ، وهذا ينعكس على اللغة التي يتكلمها ، فاللغة ترتبط بالمجتمع ارتباطًا شديدًا فترقى برقيه ، وتضعف بتخلفه عن ركب الحضارة .

---

(1) المزهر 1/ 33 وقد قال محمد بن علي «أول من تكلم بالعربية ونسى لسان أبيه إسماعيل عليه السلام» . المزهر 1/ 32 يريد أول من تكلم من العرب المستعربة بلغة عرب جرهم الذين نشأ فيهم، وتكلم بنوه لغتهم وجرهم من أهل اليمن وسكنوا الحرم .

واللهجة أو اللغوة المحلية هي نمط لغوي خاص لا يستقل بنفسه عن اللغة الأم التي يعيش في كنفها ويرعاه أبناؤها ، واللهجة سريعة التطور ومتعددة ، فقد تكون لكل قبيلة ولكل قرية لهجة في موطن واحد ، بل قد تختلف لهجات سكان المدينة الواحدة تبعا لاختلاف لهجتهم الأصلية التي كانوا عليها قبل نزولهم إلى المدن ، وقد تهاجر اللهجة مع أصحابها إلى أرض جديدة . ولا عبرة بالعدد ، فاللهجة قد تكون واسعة الاستخدام في دولة ، فيمكنك التمييز بين أهل الخليج وأهل مصر من خلال لهجتيهما ، ولكن الذي يثير مخاوفنا أن بعض لهجات الدول العربية غير مفهومة ، لأنها بعيدة الصلة عن اللغة العربية ، خلافا للهجة المصرية التي فهمها العرب دون مشقة ، وتكاد تتفشى فيهم لهجة المصريين بفضل وسائل الإعلام المسموعة والمرئية وريادة مصر الإعلامية والثقافية ومكانها فيهم .

ولا نستطيع القضاء على اللهجات قضاء تاما ، لكننا يجب أن نحصر وجودها ، وأن نمنع توسعها على حساب اللغة العربية الفصحى ، ويجب كذلك أن نرفع مستوى اللغة في الأمة ، ونقاوم بذلك الصدوع التي تحدثها اللهجات في صرح الأمة ، وأن نسد خلتها ، وأن نرتق الفتق الذي أحدثه اختلاف اللهجات في لغة العروبة والإسلام .

obeikandl.com